الاحتواء في اللّغة: - من أسر الآنية إلى الكينونة الفعلية-مقاربة تداوليّة

الأستاذة: زينة براهمية

جامعة العربي تبسي-تبسة

الملخص:

لقد تخلّت اللّسانيّات البنيويّة عن البحث فيما وراء الكينونة اللغوية بمفهومها الشّكلي الذي يركّز على الشّكل دون المادّة، وأبعدت البعد الخارجي المتمثّل في المرجع من خلال تركيزها على دراسة اللّغة لذاتها ولأجل ذاتها، فآلت العلامة اللّغويّة في ظلّ البنيويّة إلى نسق مغلق ذي إجراءات داخليّة صارمة، في حين كان للتّصور اللأنجلوسكسوني المتمثّل في إسهامات بيرس بمعيّة شارل موريس فضل السّبق في تشييد نسقيّة سيميائيّة مفتوحة تعمل على استعادة المحتوى التّداولي للعلامة، ومن ثمّة سعت اللسانيّات التّداولية إلى مدارسة الجانب الإنجازي للعلامة في السّياق انطلاقا من الأطروحة المركزيّة في فلسفة اللّغة العادية وهي الاستعمال، وهي إذ ذاك ما لبثت تقاوم سحر التّجريد الذي فرضته البنيويّة، سعيا لإثبات تلك العلاقة الضروريّة بين اللّغة والعالم الخارجي.

ABSTRACT:

Structural linguistics has neglected researches about extra linguistic being considered in its formal notion that focuses on forms rather than the essence, it has also neglected the referential dimension through focusing only on the study of language for it self. Thus, the linguistic sign became in the structural conception a closed system with internal strict procedures. However the contributions of Pierce and Morris won the advantage of founding an open semantic systematicity which aim is to restore the work on the pragmatic content of the sign. Thus, pragmatic linguistics focuses on the study of the performative aspect of the sign on the basis of the central hypothesis of the daily language philosophy that is usage. Pragmatics is then an opposition to structural abstraction, its principal objective is to confirm the necessary relation between language and the external world.

مقدمة:

ارتأت البنيويّة اتّخاذ التّوصيف المحايث للبنيات اللغوية اتّجاها لها لتتمكّن من رصد التّعالق الحاصل في النظام اللغوي في فترة زمنية بعينها، بهدف الوصول إلى القوانين التي ما هي في الحقيقة إلّا تعبير عن هذه العلاقات، وتخلّت عن البحث فيما وراء الكينونة اللّغويّة بمفهومها الشّكلي، وأبعدت البعد الخارجي المتمثّل في المرجع من خلال تركيزها على دراسة اللّغة لذاتها ولأجل ذاتها، فآلت العلامة اللغويّة في ظلّ البنيويّة إلى نسق مغلق ذي إجراءات داخليّة صارمة، في حين كان للتّصوّر

الأنجلوسكسوني المتمثّل في إسهامات بيرس بمعية شارل موريس فضل السّبق في تشييد نسقيّة سيميائيّة تعمل على استعادة المحتوى التّداولي للعلامة اللغوية.

ومن ثمّ سعت اللّسانيّات التّداوليّة إلى مدارسة الجانب الإنجازي للعلامة اللغوية في السّياق انطلاقا من الأطروحة المركزيّة في فلسفة اللّغة العادية؛ الاستعمال؛ وهي إذ ذاك ما لبثت تقاوم سحر التّجريد الذي فرضته البنيويّة، سعيا لإثبات تلك العلاقة الضروريّة بين اللّغة والعالم الخارجي وما إن فتحت المجال إلى ما يعرف بالمخرج الألسني وعقدت أواصر الالتقاء والتّلاحم مع حقول معرفية مختلفة حتى أعطتنا آليّات تحليليّة كثيرة ما جعل أعناق الباحثين تشرئبّ إليها تنظيرا وتطبيقا بحثا فيها عن رؤى متعدّدة لم توفّرها الدّراسات الشّكليّة الصّوريّة التي أهملت مقاربة اللّغة في تجلّيها ما جعلها على الرغم من أنّها دخلت الخريطة اللّسانيّة مؤخرا تغدوا أظهر فروع اللّسانيّات بل ارتقت إلى أن أصبحت أهمّ العلوم اللّسانية؛ إذ لم تعد هذه الأخيرة- اللسانيّات- ذلك العلم المنعزل في المختبر بل انعتقت من أسواره لتشارك في تدفّق الحياة البشريّة ولتأخذ من الإنسان وهو يباشر أدواره الاجتماعية ويتواصل مع الآخر موضوعا لها.

1- اللّغة من النّظريّة البنيوية إلى النّظرية التّداوليّة:

إنّ اللّغة ضرورة الحياة البشريّة، بل هي صانعة رحلته على الأرض، يتغلّب بها على ما حوْله من ظروف البيئة الخارجيّة والدّاخليّة التي لا يتمّ اختراقها إلاّ بمفتاح اللّغة السّحري.

لذا تنفرد اللّغة دون غيرها بمنزلة مهمّة في حياة البشر، يقول **"عبد السّلام المسدّي"**: «اللّغة من حيث هي وجود مطلق لازمة الحضور مع الإنسان، وفي ذلك طابعها الكوْني.»[1]

اللّغة هي الوجود المطلق، لأنّها قوّة ونشاط في دواخلنا، تنقل موجود حقائقنا، فكأنّما هي تنفخ روح الحياة في كل الكائنات والأشياء، ويقول **"بول ريكور"**:«الأسماء إذن هي التي تحضر الأشياء وتمدّها بالوجود والثّبات وهي التي تسبغ المعنى على الخيْرة وتجعل الخبرة تصبح ذاتها.»[2]

اللّغة تحضر الأشياء والأشياء بها تكون، فاللّغة يتلفّظ بها الوجود وينطق ذاته من خلاها، «الوجود لغة، أو هو لغوي في بنيته وصميمه، فليست الكلمات واللّغة قواقع تختزن فيها الأشياء ببساطة من أجل تجارة الحديث والكتابة.»[3] ليست اللّغة لفائف تعبّأ بها الأشياء، وليست مصطلحات وأسماء وضعها الإنسان، يعيّن بها أشياء لتدخل عالم الوجود، بل في اللّغة ذاتها توجد الأشياء وتكون، يقول **"هيدجر"**:« الوجود بطبيعة الحال يسفر عن وجهه في اللّغة.»[4] إذا لا وجود للوجود إلاّ باللّغة،

لإنّها صوت الكينونة، نلتقي بها في كلّ سلوك نقوم به، فكيف يمكن عزلها عن العالم الخارجي؟ كيف يمكن دراستها كنظام مكتفٍ بذاته ذي علاقات داخليّة فقط ؟

ينطلق الطّرح البنيوي من منظور محايثي: أي دراسة نسق اللّغة بمعزل عمّا تتناوله تلك اللّغة من فكر من جهة وفصلها عن الوجود من جهة أخرى. وضمن هذا الطّرح أصبحت اللّغة وساطة بين علامات وعلامات فقط، ولا وجود للبعد الخارجي المتمثّل في المرجع.

كان هذا حرصا من زعيم البنيويّة "**فردناند دوسوسير**" على الصّرامة والمنهجيّة، والدّقّة العلميّة، سعيًا لتقديم وصف دقيق للمتن اللّغوي، وعرض شامل للبنية الدّاخليّة للّغة، يقول "**جرهارد هلبش**":

«إنّ الذي يجمع الاتّجاهات المختلفة لعلم اللّغة البنيوي هو فهم اللّغة على أنّها نظام علائقي، وعلى أنّها بنية داخليّة.»[5]

إن قول "**جرْهارد هلْبش**" في كون اللّغة بنية داخليّة من منظور البنيويّة يستدعي الوقوف عند الموقف المنهجي البنيوي الذي قام رائده بإفراغ جذري للخارج لساني "**Exstra - ling**" يقول "**دوسوسير**": «أعتقد أن دراسة الظواهر الخارجية مفيدة جدا ، ولكن القول أننا لا نستطيع فهم النظام اللغوي الدّاخلي من غير دراسة الظّواهر الخارجيّة، إنّما هو كلام بعيد عن الحقيقة. »[6]

وقد رهن على ذلك بالاستعارة؛ إذ تستغني في كثير من الأحيان عن العالم الخارجي لفهم الاستعارة ونكتفي بتأويلها في حدود النّسق الذي وردت فيه.

ويقوم الطّرح البنيوي على مفهوم الوصف الذي يعتبر أحد أهمّ عناصر الجهاز المفاهيمي الذي قدّمه "**سوسير**" ويعني هذا المفهوم تنظيم المعطيات المتوافرة من أجل معرفة مضبوطة ودقيقة للظّواهر التي تمّت ملاحظتها دون التّطرّق إلى رأي طابع افتراضي من شأنه تقديم تفسير ما، ويعود سبب الاكتفاء بالوصف إلى كون العلامات الاعتباطيّة والعرفيّة في اللّغة واضحة ولا يعتريها أيّ غموض والوصف يتحدّد بدراسة المنجز في صورته الآنية، بذلك قامت اللّسانيّات البنيويّة على انشطار الجسم اللّغوي وانقسامه إلى ثنائيّات (**Dichotomies**)، من بين هذه الثنائيات الأساسية في المنهج البنيوي ثنائية الآني **synchronic** / زماني **Diachronic** والاتّجاه الآني هو الذي يتحقّق فيه الوصف، يقول "**ميلكا إفيش**": «فالمقاربة الآنية تعالج الموقف اللّغوي في لحظة بعينها من الزّمان...»[7]

فاللّسانيّات البنيويّة تتّخذ المقاربة الآنية منهجا لها أثناء تتّبعها للوقائع اللّغويّة، فلا تهتمّ بالتّاريخ ولا تأبه للظّواهر اللّغويّة بوصفها ظواهر مستقلّة بعضها عن بعض، بهدف الوصول إلى القانون العام الذي يحكمها، وهذا ما جعلها سانكرونيّة، وتسجّل في الوقت نفسه قطيعة مع الدّراسة الدّياكرونيّة

التّاريخيّة، يقول "**دوسوسير**" معلّلا وجهة نظره في اعتماد المقاربة الآنية: «إن أوّل ما يثير اهتمامنا عندما ندرس حقائق اللّغة هو أنّ التّعاقب الزّمني لهذه الحقائق لا وجود له عند المتكلّم، فالمتكلّم يواجه حالة لغويّة لذا على اللّغوي الذي يرغب في فهم حالة لغويّة أن ينبذ جميع المعرفة المتعلّقة بالأمور التي أدّت إلى تلك الحالة، ويهمل العامل الزّمني، فهو لا يستطيع أن يدخل إلى عقل المتكلّم إلاّ بنبذ الماضي تماما؛ لأنّ تدخّل التّاريخ لا ينتج عنه سوى تشويه أحكام الجنس اللّغوي.»[8]

إذن يكون عامل التّاريخ حائلا بين اللّغة والدّراسة العلميّة على حدّ تعبير"**دوسوسير**"، فالواجب القيام بإفراغ جذري للدّراسة من أيّة شوائب من شأنها أن تعكّر صفوها، لذا ليس غريبا على من وقف عند حدود الدّراسة الآنية، وألغى الخارج لساني أن يبعد المرجع عن الدّراسة بشكل نهائي.

«إنّ اللّساني لا يهتمّ بالمرجع المدلول عليه.» الموجود في الواقع، أي (référant) والذي يحيل على العنصر المحسوس المادّي، بل إنّ اهتمامه منصبّ على المدلول المفهوم، وعليه فالدّليل اللّساني عند "**دوسوسير**"«le signe linguistique» ما ربط بين المدلول المفهوم والصّورة الصّوتيّة التي تشير إليه.»[9]

ووفقا للمبدأ الآني، ينظر المنهج البنيوي إلى اللّغة باعتبارها موضوعا قابلا للدّراسة المنتظمة المستقلّة استقلالا تامّا عن كلّ ما يحيط بها على خلاف ما كان سائدا مع المنهج التّاريخي.

وعلى هذا الأساس، فإنّ المنهج البنيوي منهج ذهني خالص يلغي الجانب المادّي من الدّراسة العلميّة، ويتجلّى هذا من تصوّر "**سوسير**" للعلامة اللّسانيّة، حيث يرى أنّها تتكوّن من جانبين أساسيين هما: الدّال (signifiant) والمدلول (sinifie)، أمّا الدّال فهو الصّورة السّمعيّة التي تدلّ على شيء ما أو تعني شيئا ما ولا يعني هذا ذلك الصّوت الفيزيائي، أمّا المدلول فهو التّصوّر عن الشّيء المعني وليس الشّيء المعني ذاته، ومنه تتحدّد العلامة اللّسانيّة عند "**دوسوسير**" بوصفها ارتباطا بين تصوّر ذهني وصورة سمعيّة، والتي تأخذ عنده - الصّورة السّمعيّة – مفهوم البصمة النّفسيّة للصّوت، أو الانطباع أو الأثر الذي تشكّله لنا حاسّة السّمع، أمّا الكلام، الزّمان، والوجود، فهي عناصر خارج دائرة اهتمامات المنهج البنيوي لذلك ينْعت بأنّه منهج شكلي صوري، لا يدرس ما وراء الكينونة اللّغويّة، إنمّا يعنى بدراسة المنجز اللّغوي في صورته الآنية عزلا له عن كلّ ما يحيط به، عن الزّمن، وعن الوجود.

هنا بالضّبط دخلت اللّغة في أسر الآنية وفق التّصوّر النّفسي للعلامة، وإلغاء الشقّ المادّي من الدّراسة.

والحال أنّه لا يمكن استبعاد هذا الشّقّ المتمثّل في المرجع، ودراستها كنظام من العلاقات، فحقيقة اللّغة لا تكمن في جانبها النّسقي الشّكلي إنّما تلك الحقيقة كامنة في مظاهرها المقاميّة بالدّرجة الأولى.

لذا لا يمكن فصل اللّغة عن الوجود، فهي سرّ الوجود والأصل الإنشائي لكلّ موجود في انطولوجيا الخلق، فالوجود مرجع أفعال اللّغة، تعمل فعلها فيه ليكون بها موجودا، بل إنّه نوع من الاحتواء فيها، وهو ليس ذاتيّة مغلقة على نفسها، بل هو موجّه منذ البداية نحو العالم الخارجي، هو الحقيقة الواقعيّة الدّائمة، أو الحقيقة التي نعيش فيها.[10]

والرّجوع إلى الأشياء والماهية بالمعني الفينومينولوجي مطلب ضروري لا غناء عنه، «فالمرجع أو الشّيء المشار إليه له التّقدّم المنطقي على الاسم وبالأوْلى على الدّلالة.»[11]

لا يمكن فصل اللّغة عن الوجود، عن العالم الخارجي، فكلّ ما تجاوز حدود اللّغة أو كان خارج إطارها غير موجود أصلا، فاللّغة تحتوينا، فيها يكمن مصير الإنسان، بل حقيقته وجوهره، يقول **"هيدجر"**:«الوجود بطبيعة الحال يسفر عن وجهه في اللّغة.»[12]

ويقول "**رولان بارت**": «إنّ اللّغة هي صوت الكينونة، والحقيقة ليست شيئا آخر سوى الكشف عن الكينونة من خلال اللّغة.»[13]

"**هيدجر**" الذي يعلن احتواء اللّغة للوجود، يشاطره في ذلك "**بارت**" الذي يرى أنّ كلّ المجالات الاجتماعيّة ليست سوى شفرات غير ذات أهميّة وهي معزولة عن اللّغة، كقانون السّير مثلا، وأنّه بمجرّد الانتقال إلى مجموعات لها عمق اجتماعي حقيقي نلتقي باللّغة، ممّا لا مراء فيه أنّ الأشياء والصّور والسّلوكات قد تدلّ بغزارة لكن لا يمكنها أن تفعل ذلك بكيفيّة مستقلّة؛ لأنّ كلّ نظام دلائلي يمتزج باللّغة امتزاجا، ويقول ذاته من خلال اللّغة فكيف إذن نعزل اللّغة عن العالم الخارجي، وكلّ نظام دلائلي لا يحكي نفسه إلّا من خلال اللّغة ؟

يقول "**بارت**": «إنّ كلّ المجالات المعرفيّة ذات العمق السّيميولوجي الحقيقي تفرض علينا مواجهة اللّغة، ذلك أنّ الأشياء تحمل دلالات غير أنّه ما كان لها أن تكوّن أنساقًا سيميولوجيّة أو أنساقًا دالّة لولا تدخّل اللّغة، ولولا امتزاجها باللّغة، فهي إذن تكتسب لغة النّسق السّيميولوجي من اللّغة.»[14]

فكلّ نسق إذا جامد لا حياة فيه ما لم تنفخ فيه اللّغة من روحها، فيتكلّم بإذنها ، وهو في غياهب الصّمت ما لم تأخذ اللّغة بيده وتقوله للوجود، فإذا به يتكلّم لغة، وما كان ليتكلّم لو لم تقله اللّغة.

فصل اللّغة عن الوجود كانت النّقطة التي أطاحت بالنّموذج البنيوي السّوسيري، ليطرح نفسه وبقوّة النّموذج البيرسي ثلاثي الأبعاد المتكوّن من دال ومدلول ومرجع، وهكذا تمّت استعادة البعد التّداولي للعلامة، في هذا البعد تتّخذ العلامة من خلال وظيفتها الأصليّة والآثار التي تحدثها عند المتلقّين، أي الطّريقة التي تستعمل بها هذه العلامة، في هذا البعد تحرّرت العلامة اللغويّة من أسر الآنية لتنتقل إلى الكينونة الفعليّة، لتعلن ذاتها، فحقيقتها لا تكمن في تألّفها مع غيرها من العلامات في جانب نسقي شكلي، إنّما تلك الحقيقة كامنة في مظاهرها الاستعماليّة والتّداوليّة والمقاميّة بالدّرجة الأولى.

تمّت استعادة البعد التّداولي ليحدث انقلابا جذريّا في طريقة النّظر إلى العلامة اللغويّة، فقد صار في منطقة أن العلامة اللّغويّة، لا تقاس لعلاقتها مع غيرها من العلامات داخل نسق مغلق، بل تقاس بالنّظر إلى مرجعها وبالنّظر إلى الحدث الإنجازي الذي تخلّفه في العالم الخارجي، لقد فتحت التّداوليّة المجال إلى ما يعرف بالمخرج الألسني؛ إذ احتضنت دراسة جديدة تهتمّ بالعلاقة الماثلة بين اللّغة وبعدها المرجعي، العالم الخارجي، الوجود بأسره.

فهي تعتبر منعرجا حاسما في الدّرس اللّغوي المعاصر؛ لأنّها انتقلت باللّغة من المستوى النّسقي المغلق إلى المستوى المرجعي، والمقامي و المستوى الحدثي.

تهتمّ التّداوليّة بما وراء الكينونة اللغويّة، تبحث في كل ما يحيط باللّغة لتصل إلى الحقيقة المنطقيّة، لتكون تلك النّظريّة التي انفتح فيها النّسق اللّساني ليغادر الانغلاق البنيوي وينعتق من الأسر الآني ليستعيد الهويّة الوجوديّة والزّمانيّة معا.

جاءت التّداوليّة، لتترك اللّغة وهْم الوجود في النّسق المغلق ولتبْحث في الحقيقة الفعليّة التي تخدمها في الوجود.

2- اللّغة والقيم الاجتماعية المجرّدة:

تمتلك الحيوانات – بشكْل غريزي – قدرة على التّواصل، فتصدر أصْواتًا تعبّر من خلالها عن فرحها أو ألمها فهذه الأصوات وسيلة للتّعبير عن الأحاسيس وكذا الانفعالات المباشرة بطريقة مباشرة، ولا تستعمل في ذلك لغة بل تكتفي بأصْوات نسْتدلّ بها عن هذه الأحاسيس في حين أنّ الإنسان هو الكائن الوحيد الذي ينطق ويعبّر عن أحاسيسه وقيمه المجرّدة.

إنّ تلك القيم والمفاهيم المجرّدة من الصّعب أن تستدلّ على وجودها من دون لغة، وتمثّل هذه القيم بين قيمتين هما أصل كلّ القيم الأخرى، وهما قيمتي الخير والشّرّ فمن قيمة الخير كانت معاني العدْل والصّدق والحقّ والمحبّة والوفاء والإخلاص وغيره من القيم الفاضلة، ومن قيمة الشّرّ كانت

معاني الكره، والبغض والحسد، والغدر والنّميمة والخيانة والرّذيلة وغيرها من القيم التي تستقبح الأذن سماعها.

ولا يمكن - في أي حال من الأحْوال - أن نحاجج حوْل العْدل والظّلم دون لغة أو نعبّر عن المحبّة والكره دون لغة وهكذا، فهي قيم مجرّدة لا تجسّد في الوجود إلّا باللّغة، ومن المستحيل في نظر "أرسطو" أن نتواصل حوْل ما هو خير وما هو شرّ من دون لغة «من هنا فإنّ امتلاك اللّوغوس ليْس فقط امتلاك لملكة التّواصل، والتّبليغ والإعلام والإخبار، فالصّوت يسْمح بذلك، والحيوانات كذلك تقدر على ذلك، ولكن التّواصل والتّبليغ بواسطة المفاهيم وتبادل القضايا ملكة إنسانيّة تقوم على التّجريد، وتجعل من بعض القيم الاجتماعيّة المجرّدة ممكنة مثل الخير والشّرّ والعدل والجور أو الظّلم ...»[15]

إنّ عالم الحيوانات يخلو من هذه المعاني المجرّدة، حسبها في ذلك التّواصل الغريزي المعبّر عن الألم والفرح والجوع والمرض مثلا، لكن عالم الإنسان تشكّله هذه القيم والمعاني، بل خلقه الله تعالى – وابتلاه بها فإمّا أن يزكّي نفسه فيتّبع معاني الخير، وإمّا أن يهين نفسه، فيرضعها قيم الشّرّ ومعانيه ولا يفطمها أبدا، هذه القيم هي موجودة في دواخلنا، لكن أنّى لها أن تعلن وجودها للوجود لولا امتزاجها باللّغة .

ويرى **"ابن حزم"** أنّ اللّغة جسر الإنسانيّة إلى كلّ هذه القيم المجرّدة.[16]

إنّ هذه المعاني من أجلها خلق الوجود، وخلقت الجنّة والنّار وجعلت لها الأرْض ميدانا للصّراع، واللّغة صوت وجودها.

فإذا كانت هذه المعاني والقيم تختزل الوجود في ذاتها وتحْتاج في الوقت نفسه إلى اللّغة لتقولها، ألا يعني ذلك أنّ اللّغة تختزل الوجود في ذاتها ؟ وكيْف يمكن عزل اللّغة عن الوجود، وإفراغها جذريًا من حمولتها الإيديولوجيّة ثمّ دراستها كشكل صوري لا معنى له؟

3- اللّغة والحاجات:

تتّضح العلاقة بيْن اللّغة والحاجات، في كون الإنسان ذا حاجة إلى غيره، غير مكتف بنفسه، لذلك احْتاج إلى اللّغة واستعملها، وقد توصّل **"عبد السّلام المسدّي"** بعد تحليله لنصّ "الجاحظ" يتحدّث فيه عن وظيفة الكلام إلى اسْتنتاج مفاده أنّ وجود الإنسان متراهن مع توالد الحاجات، وأنّ سدّ الحاجات متعذِّر خارج حدود اللّغة.[17]

أمّا نحن فنفهم من كلامه أنّ الإنسان يلتمس من ولادة حاجاته وجوده وإذا كانت هذه الحاجات لا يمكن سدّها إلاّ في حدود اللّغة، فهذا يعني أنّ الإنسان لا يلتمس وجوده إلاّ في حدود اللّغة، بل اللّغة هي التي تسطّر وجوده فكيْف يمكن عزلها عن الوجود؟!

4- اللّغة والتّواصل:

يولد الإنسان باستعداد تواصلي مبدئي، إذ لا وجود لشخصيّة غير تواصليّة بالطبيعة والجبلّة، ويرمي التّواصل إلى بناء مختلف للذّات، بحيث يشكّل نسيجا من الذّوات المتواصلة، وفي الغالب يهدف إلى نقل معلومة أو رسالة بين طرفين، وهذا ما يفسّر ارتباطه باللّغة وفلسفتها، ما جعل علماء اللّغة يعتبرون التّواصل الوظيفة الأولى والأصليّة و الأساسّية للغة.

حتّى إنّه «يصعب الحديث عن اللّغة من دون تسرّب الأبعاد التّواصليّة إلى مجال تداولها.»[18]

بل إنّ كثيرا من الباحثين في تعريفه للّغة يثبت مفهوم التّواصل، ولا يفْصله عنها حيث نجد **"مصطفى غلفان"** يقول:«أبسط تعريف للّغة هو أنّها نظام من الأصوات يتواصل بها أفراد مجتمع للتّعبير عن حاجاتهم الماديّة والمعنويّة.»[19]

بل إنّه يؤكّد على أنّها وسيلة وأداة للتّواصل حيث يقول: «وقد نتقدّم قليلا فنعرّف اللّغة صوريّا أو شكليّا بأنّها وسيلة للتّواصل أو أداة للتّعبير عن الأفكار.»[20] ولا غرابة في ذلك فالذّات البشريّة في رغبة ملحّة لتحقيق نوع من التّماشي مع ذات الآخر، والذّوبان في العالم الخارجي، ولا يحدث لها هذا إلاّ عن طريق التّواصل، أمّا التّواصل عموما فيعني «أنّ كلّ إنسان متكلّم وسامع في الآن نفسه، يصدر ويؤوّل ما لا حصر له من الجمل حسب ما يقتضيه المقام التّواصلي، والتّفاعل بينه وبين السّامع.»[21]

ومنه فإنّ التّواصل سمته الحتميّة والضّرورة ذلك أنّ جوهره التّشارك والمشاركة، فلا يمكن في أيّ حال من الأحوال أن ينعزل النّاس بعضهم عن بعض، ولا يتأتّى لهم ذلك إلّا باللّغة، و«**ابن حزم** يرى أنّ اللّغة منفّذ كلّ مظاهر التّواصل مع الوجود.»[22] فكأنّ اللّغة تمّ تفجيرها لتكون تواصلا، بحيث أنّنا نفرّق من خلالها بين الإنسان والحيوان أو بين الإنسان والآلات التي تشبهه وإنّ **"ديكارت"** يذهب هذا المذهب، ويحدّد الوسيلة التي بها نُفرّق بيْن الإنسان وتلك الحالات التي تشبه جسم الإنسان وتقلّد تصرّفاته وتتمثّل في أنّ هذه الحالات لا تستعمل الكلام أو إشارات كما يستعمله الإنسان إذا رغب في إيصال أفكاره إلى الآخرين، بالرّغم من أنّها قد تقوم بأعمال متعدّدة مثله أو ربّما بصورة أفضل من هذه الأولى.

ولكن الإشكال الذي يطرح نفسه بقوّة هو:

- ✓ هل يمكن تصوّر عالم إنساني متفاعل، متواصل مع بعضه البعض خارج ما توفّره له اللّغة من مفاهيم ومقولات؟
- ✓ هل يمكن أن نتصوّر لغة واصفة من غير أن يكون لها وظيفة؟
- ✓ هل اللّغة تحتوي فعل التّواصل أم أنّه لا يمكن أن يحْدث خارجها، أم أنّها هي في حدّ ذاتها جزْء من العمليَّة التّواصلية، بحيث يمكن القول أنّ اللّغة تشكّلت بفعل استخدام النّاس لها أثناء التّواصل؟
- ✓ وبشكل أوضح: هل اللّغة تغدو أمر تحدّده سيْرورة التّواصل الجاري في قلب جماعة ما، أم أنّها هي التي تحدّد سيْرورة التّواصل بحكم أنّه لا يمكن أن يحْدث إلّا بها؟
- ✓ إنّ القول بوجود صلة وثقى بيْن اللّغة والنّشاط التّواصلي أمْر لا مراء فيه، لكن الإشكال وكما طرحْناه متمثّل في أيّهما يحْتوي الآخر؟

لقد ارتبطت نشأة الخطاب التّنظيري والتّحليلي للتّواصل بنموذج "كلود شانون" و"وارين ويفرد"، وحسب هذا النّموذج فإنّ اللّغة هي الأداة الوحيدة للتّواصل، بل إنّه يغيّب كلّ المكوّنات الأخرى غير اللّغويّة، والتي تؤسّس لنظام تواصلي معقّد.

والتّواصل حسْب هذا النّموذج فعل واع وإرادي يتوقّف على رغبة الفرد في إيصال معلومات معيّنة إلى الآخر المنزوي في عزلة الاتجاه المقابل.[23]

وإذا كانت اللّغة هي الأداة الوحيدة للتّواصل حسْب هذا النّموذج، فإنّه لا سبيل للقول بسيميولوجيا التّواصل، فلا يمكن أن نتواصل بالإشارات ولا الرّموز والأزياء دون أن تمتزج باللّغة امتزاجا، يقول "**رولان بارت**" «إنّ اللّغة هي صْوت الكينونة والحقيقة ليست شيئا آخر سوى الكشف عن الكينونة من خلال اللّغة، وإذا كانت وجهة النّظر هذه صحيحة، فلا مكان للسّيميائيّات أو نظريّة العلامات»[24]، وربمّا هذا ما جعله يعارض طرح **"فردناند دوسوسير"** المتمثّل في أنّ علم اللّغة جزء من علم العلامات، وقلب الطّرح ليصبح علم العلامات أو السّيميولوجيا جزء من علم اللّغة، ذلك أنّ العلامات لا يمكنها أن تدلّ ما لم نؤوّلها باللّغة، وهذا يعني أنّه لا يمكن أن نتواصل بها خارج اللّغة، فاللّغة هي التي تعطينا إمْكان التّواصل، وبما أنّ كلّ نسق لفظي كان أم غير لفظي لا يحصل إلّا في إطار اللّغة، ولا يمكن له أبدا أن يحصل خارج إطار اللّغة، أفلا يعْني هذا أنّ اللّغة هي التي تحدّد سيرورة التّواصل بحكم أنّها تمنحه المفاهيم والمقولات، وبحكم أنّه لا يْحدث إلاّ بها، وكلّ هذا يؤكّد لنا أنّ اللّغة تحتوي فعل التّواصل والذي دونه لا يمكن أن نتصوّر عالما متواجدا متفاعلا، ولا يمكن أن يكون الوجود موجودا.

وإذا كانت اللّغة هي التي تحدّد سيرورة التّواصل، من حيث أنّه لا يمكن تصوّر وجود غير متفاعل غير متواصل فإنّ اللّغة هي التي تحدّد سيرورة الوجود.

5- اللّغة والفكر:

لقد استدلّ "**ديكارت**" بالفكر على الوجود، بل على الذّات البشريّة كلّها، فوجودها مقترن بتفكيره، لذلك عدّ التّفكير الحدّ الفاصل بيْن الإنسان والحيوان، يقول: «أنا أفكّر أنا موجود».

منذ القدم شغلت علاقة اللّغة بالفكر حيّز النّقاش، والأخْذ والردّ بيْن العلماء، أمّا اللّغة فقد سادت عندهم فكرة أنّها ظاهرة كونيّة، وفي نفس الوقت كيان علوي متسام، وأمّا الفكر فهو أسرار بشرية تتطلع إلى الكمال وتحتاج في تطلّعها هذا إلى لغة تأخذ بيده، فكلّما سما الفكر وعلا، زادت اللّغة سموّا وعلوّا، والعمق الروّحي الذي يمهّد الطّريق للخطوة الأخيرة التي يسمو بها من خلال اللّغة، وهو الذّوبان الكلّي لأيّة معرفة في هيْكل اللّغة.

أمّا المسمّيات والمصطلحات فهي صياغات واختلاقات للفكر، تكشف لنا عن أشكال الفكْر نفسها.

بذلك تكون اللّغة قوام التَفكير عندنا بوصفها الشّكل الخارجي لتجلّي الفكر، فلا يمكن أن نستدلّ على وجود الفكر إلّا باللّغة، «إنّ دور الفكر في الرّسالة هو إنتاج المعنى، هذا المعنى لا يمكن التّعرّف عليْه خارج اللّغة، فنحن لا نتعرّف على الفكر في حدّ ذاته، لأنّه لا وجود لفكر مجرّد، ومن ثمّ فلا يوجد فكر إلا حيْثما يوجد تعبير في الفكر، فرسم الحدود بيْن ما يمكن التّعبير عنه، فالحدّ تقول - الرّسالة – يمكن أن يوضع فقط بالنّسبة للّغة.»[25]

وما دام الإنسان يفكّر من خلال العلامات اللّغويّة، فإنّه يتعيّن على الباحث رصد هذا التّفكير في مستوى فهم وتفسير آليّات اشتغال العلامات اللّغويّة.

بذلك تكون اللّغة سبب نتوسّل به إلى الفكر، فالتّطلّع إلى محْتوى الفكر مستحيل خارج إطارها، وإنّ علاقة الاتّصال بينهما تأكّد حاجة كلّ منهما للآخر، فلا يجمع شتات الفكر إلاّ داخل أسوار اللّغة، فتنقله من حيّز الكتمان إلى حيّز التّصريح، «إنّ القول الفارغ من المعنى غيْر مفهوم، في حين يكون القول الخاطئ مفهوما رغم أنّه يرسم صورة غيْر مطابقة للواقعة.»[26] وإنّه لمن المستبعد أن تحرز البشريّة تقدّما ورقيّا، إذا لم تكن اللّغة تخدم الفكر، لذلك نجد الدّول التي تحسن التّفكير تمْلك لغة قويّة تهيمن بها على العالم، ولكن وعلى الرّغم من أنّ العلماء اختلفوا بشكل واضح في أسبقيّة كلّ منهما على الآخر، فانقسموا فريقيْن، فريق يقول بأسبقيّة الفكر على اللّغة، وآخر يقول بأسبقيّة اللّغة على الفكر، وقد خاضوا في المؤضوع طويلا، بل لا تزال هذه القضيّة إلى اليوم محلّ نقاش، وإنّنا

وإن أشرنا إلى بعض الآراء في هذا الموضوع ليْس للخوض فيه مجدّدا، وفتح باب النّقاش لأجل النّقاش فقط، بل إنّنا نرمي من وراء هذا إثبات تلك الصّلة القويّة بيْن اللّغة والفكر، فهل نستطيع أن نفكّر دون لغة؟

هل نستطيع ذلك دون أن نستحضر في أذهاننا ألفاظ معيّنة؟

لقد لاحظ "**لوك**" وغيره من العلماء والفلاسفة تلك العلاقة الوطيدة بيْن اللّغة والفكر، وتوصّلوا إلى أنّها علاقة من الدّاخل، ولا نستطيع أن نفصل بيْنها في أيّ حال من الأحْوال «فاللّغة واجب وجود لمنشأ اللّغة ذاتها.»[27]

وبسبب هذه العلاقة الوطيدة راح العلماء والباحثون يبحثون في الأسبقية يقول "**عبد الرحمان حمّادي**": «وبعد فإنّني أستطيع القول أنّ الفكر يسبق اللّغة من النّاحية الزّمنيّة، فالطّفل يولد بفكر ثم يكتب اللّغة، ولا يولد بلغة ثم يكتسب الفكر، والفكر هو الذي يؤهّله لاكتساب اللّغة.»[28]

وهذا مذهب كثير من العلماء، "**كأغسطين**" وغيره، وقد نحوه وقدّموا في سبيل إثباته وإقناع العامّة به حججا كثيرة، ما جعل الرّأي المعارض يحاول بكلّ الحجج أن يثبت خطأ في مقابل إثبات صحّة وجهة نظره هو التي مفادها أنّ اللّغة أسبق على الفكر، وهو رأي "**فيتجنشتيْن**" الذي يرفض أن يكون الفكر موجود بصورة سابقة على اللّغة و هو بهذا التّصوّر يعارض وبشكل صريح نظرة القدّيس "**أوغسطين**" للّغة لما يقول: «كنت ألتقط عن طريق الذّاكرة الأسماء التي كنت أسمع أنّها تعطي للأشياء، والتي كانت ترْفق بحركات تجاه الأشياء، وكنت أرى وأحفظ بأنّ الشّيء يحْمل الاسم الذي ينطق به عندما يراد تعيينه.»[29]

إنّه وحسْب كلام "**فتجنشتين**" لا يمكننا أن نتكشّف عن دلالات خارج إطار اللّغة ، بل إنّها تولد داخل اللّغة فقط، وهذا يعني أنّه لا فْكر خارج إطار اللّغة، بل هو رهين أسوارها، فكيْف لنا إذا أن نتحدّثَ عن أسبقيّة الفكر عن اللّغة ما دمنا لا نجد فكرا خارج إطارها؟ وهي نزعة ينتزعها "هيجل" الذي لم يكن يرى أسبقيّة للفكر عن اللّغة وكذلك "**جون هيبّوليت**" الذي يقول في سياق حديثه عن العلامة والرّمز عند "**هيجل**": «إنّ اللّغة تسبق الفكر رغم أنّها تعبّر عنه، أو بعبارة أخرى، فإنّ الفكر يسبق نفسه في هذه المباشرة (l'immédiateté)، إن اللّغة لا تحيل إلّا على نفسها، ولا تتجاوز إلّا في اللّغة، وبهذا المعنى يمكن أن نقول عنها أنّها طبيعيَّة.»[30] إنّه وبغضّ النّظر عن ما قدّم أصحاب الفريقيْن من حجج وبراهين، نقول أنّه لا سبيل للمفاضلة بين اللّغة والفكر ولا فائدة مرجوّة من البحث في الأسبقيّة، غير أنّ البحْث في نوع العلاقة بيْنهما مهمّ.

إنّ القول بأنّ التّطلّع إلى محْتوى الفكر مستحيل خارج إطار اللّغة، ينْفي القول بأنّ اللّغة رموز يعبّر بها عن الفكر ذلك أنّ هذا القول يجْعل الفكْر أشمل وأوْسع من اللّغة، بل يحتويها والحقّ أنّ اللّغة تولّد الدّلالات والأفكار فكيْف نقوُل بفكر خارج إطار اللّغة؟

إنَّ الأفكار تكْتسب كينونتها بعد تشكيلها تشكيلا لغويّا، إذ اللّغة وعاء ينصهر فيها الفْكر ولولاها لأصْبح الفكر شيئا مبْهما غير واضح المعالم، فليْس ثمّة فكر بلا لغة، وفي الآن نفسه لا لغة دون فكر وللعالم **"دولاكروا"** كلام جميل في هذه النّقطة، يقول: «إنّ الفكْر يصنع اللّغة في نفس الوقت الذي يصْنع فيه من طرف اللّغة.»[31] وهذا الكلام يُؤكّد ذلك الامتزاج الحاصل بين اللّغة والفكر، لدرجة أنّه لا يمكن الفصل بيْنهما، ولا الحديث عن أحدهما دون الحديث عن الآخر، وهذا ما شكّل ثغرة في المنهج البنيوي الذي حاول فصل المعنى عن اللّغة، ومن ثمّ دراستها كأشكال ورموز خاوية من معناها، فدراسة لغة ما، إنّما هي دراسة للفكر في حدّ ذاته يقول**"دونْلاب"**:«عندما ندْرس بنية اللّغة في شعب ما، فإنّما ندْرس صور وطرائق تفكيره.»[32]

فالفكر محْتاج إلى رموز لغويّة حيّة يتعلّق بها ليتجلّى لنا، واللّغة دون فكر لا معنى لها، فكيف نتحدّث عن أسبقيّة أحدهما عن الآخر، وهما متكاملان لا ينفصلان أبد ألا يعْني هذا أنّهما متوافقان في ساعة الميلاد؟

بل كيف لنا أن نتحدّث عن فكر ولغة، والفكر كامن في اللّغة «وقد تصوّر القدماء أنّ اللّغة لوحة ترسم منعطفات الفكر الإنساني في إبلاغه وتقلّبه.»[33] واستنادا إلى هذه المنطلقات اعتبر القدماء أنّ إماطة اللّثام عن مخزون الفْكر هو ما يعلّل وجود اللّغة، كما لا يمكن فصلها عن بعضها البعض يقول "**عبد السّلام المسدّي**": «كذا يتراءى مدار التّصوّر القديم للّغة كامنا في اعتبار الحديث الكلامي مرآة تنعْكس خلالها صور التّفكير ثم تنكسر على سطحها منافذ الفكر الإنساني السَّاعي إلى إدْراك مضامين ذلك الفكر المجلوّ على حدّ ما تنكسر أشعّة الضّوء على الصّفائح المصقولة.»[34]

من هذا التّحديد يمكن أن نجزم بشكل مطلق أن لا انفصال بيْن اللّغة والفكر، ويمكننا القول بكلّ اطمئنان أنّ اللّغة هي التّفكير يتحرّك ليحرّر نفسه فيْدرك، بحكم أنّه يحقّق ماهيتها؛ إذ تفْقد ماهيتها إذا ما فقدت معْناها أو فكرْها.

وببساطة الفكر لغة في دواخلنا وراء الشّفتيْن، الفكر لغة باطنيَّة واللّغة تفكير بصْوت عال يسمعه النّاس«لذا فإنّنا نقع في الخطأ عندما نقول أنّ الفكر سابق للكلمة، الفكر ذاته كلمة، والإنسان لا يفكّر إلّا لأنّه إنسان متكلّم فنحن نتحدّث إلى أنفسنا حتّى عندما يكون تفكير الإنسان بيْنه وبيْن نفسه.»[35]

6- علاقة الفكر بالوجود:

إنّ علاقة اللّغة بالوجود هي التي تحدّد علاقة الفكر بالوجود، باعتبار أنّ الذّات لا تستطيع أن تراقب وترصد هذا الفكر إلاّ من خلال مسكنه، ألا وهو اللّغة، فاللّغة تحمل الفكر الذي يحمل الوجود باعتبار أنّ الوجود لا يصبح ذاتًا إلّا بامتلاك هذا الفكْر.

فإذا كان الفكْر لا يستطيع أنْ يمْسك بنفسه من حيْث هو فكْر، أي أن يمثّل نفسه في اللّحظة نفسها، ويقوم بخلق عالم من أجْل وجوده وتمثّله فيه، فاللّغة ترجمة للفكر وهو يحاور الوجود. إنّه ليْس بالإمكان أن نمسك بالفكر من حيْث هو فكر إلاّ باللّغة، فاللّغة التي تترجمه هي دليل وجوده، وإذا كان الفكْر حسْب النّظرةَ الدّيكارتيّة دليل على الوجود، واللّغة دليل على الفكر، فإنّه تنْتج لنا معادلة منطقيّة، مفادها أنّ اللّغة دليل الوجود وعلى هذا الأساس، غيّر النّقد الحديث الرّؤية الدّيكارتيّة التي تجعل الفكر أساس الوجود، «إذ يرى أنّ الأنا المفكّرة، أو الأنا القارئة لم تعد هي السّائدة، بل أصبحت الأنا التي تكْتب، الأنا التي تنتج نصوصًا.»[36]

و"**لشولز**" مقولة على شاكلة مقولة "**ديكارت**"، لكنّها تعارضها في المضمون، يقول: «أنا أنتج نصوصا فأنا إذا موجود، وإلى حدّ ما أنا النّصوص التي أنتجها.»[37]

و"**عبْد السّلام المسدّي**" نحا منحى "**شولز**"، ونجده يشتقّ من تحليلات "**ابن حزم**" لعلاقة اللّغة بالوجود مقولة على شاكلة مقولة "**ديكارت**" فيقول: «أنا أتكلّم ، فأنا أعقل، فأنا موجود.»[38]

والملاحظ أنّ "**عبد السّلام المسدّي**" جعل الكلام الذي لا يكون إلّا باللّغة دليلا على العقل، وإن العقل موطن الفكر، وما يقصد الباحث أنّ اللّغة دليل الفكر باعتباره معاني تتجلّى في اللّغة وتفرغ في جوف الحروف إفراغا، فلا وجود بلا فكر ولا فكر بلا لغة، إذ الفكر جامد لا حياة فيه، فلبس اللّغة فإذا هو شاخص حيّ ، قام يحاور الوجود.

فما دام الفكر هو دليل الوجود، والفكر لا نستدلّ على وجوده إلاّ باللّغة، فاللّغة هي الوجود إذا، ترى أنّه لو قلت الفكر هو أساس الوجود، سألتك أن تعزل الفْكر عن اللّغة، فلو فعلت ما اهتديْت إلى فكْر أصلا، ولا عرفْت أنّ هناك عمليّة تفكيريّة تحدث في العقل، فالفكر واللّغة وجهان لعمْلة واحدة، والفكْر لا يوجد إلاّ باللّغة فإذا كان الفكْر الدّال على الوجود لا يوجد إلا باللّغة، فلا وجود إلاَّ باللّغة ، وكلّ ما هو خارج عن إطار اللّغة خارج عن إطار الوجود، فاللّغة تحتوي الوجود في داخلها، إنّها انغلاق عليْه، فلا خارج لها، فها قد صار كلّ شيء لغة ، نتكلّم باللّغة، نفكّر باللّغة، نسمع لغة نردّ لغة، فالوجود كلّه لغة.

7- اللّغة والسّلطة:

إنّ القول بأنّ اللّغة انغلاق على الكوْن، وأنّها الحقيقة الوحيدة التي لا خارج لها، يتأكّد لنا أنّها فعْلا حلّت محلّ العقل، واختزلت الوجود في ذاتها، كلّ ذلك يعطيها حقّ السّلطة، والتّحكّم في الآخر.

فإذا كانت هي صوْت الكينونة، وصانعة رحلة الإنسان على الأرض إذا كانت من الوهم القول بأنّها ظاهرة وأنّ الإنسان اكتشفها، باعتبار أنّها قوّة في دواخلنا نمتلكها وتفقهنا وتردّد للعالم حقائقنا، فإنّه من الصّواب القول أنّها تختزل السّلطة في ذاتها.

فاللّغة تأخذ سلْطتها علينا من دواخلنا، إذ الإنسان مبهم دونها، وتأخذ سلطتها من ذواتنا، باعتبارها تصْنع ذواتا متفاعلة متواصلة فلا غنى للفرد عن غيره، إذا تحقّق له الاتّصال مع الآخر، فالفضل يعود للّغة.

كما تأخذ سلْطتها من الفكْر باعتباره معاني مجّردة لا قيمة لها ما لم تفرغ في جوف اللّغة، كما أنّه لا نستدلّ على وجود الفكر إلاّ باللّغة، وهذا ما يؤكّد سلطتها عليْه.

وإنّها تأخذ سلطتها من الوجود لأنّه يقول ذاته من خلالها، و يسفر عن وجْهه فيها.

فالكلّ رضخ طوْعا لسلطة اللّغة، ويتحدّث "**ميشال فوكوه**":عن سلْطة اللّغة، والتي نقرؤها في نظام الخطاب عنده يقول: «إنّ من يحاول أن يهتمّ عن طريق اللّسانيّات بسلطة الظّواهر اللّغويّة ونفوذها، ومن يبْحث عن علّة تفسّر فعاليّة لغة المؤسّسة والمنطق المتحكّم فيها، ليتسنّى أنّ اللّغة تستمدّ سلطتها من الخارج... و أقْصى ما تفعله اللّغة هو أنّها تمثّل هذه السّلطة وتظهرها وترمز إليْها.»[39]

من كلام "**ميشال فوكوه**" يتّضح أنّ اللّغّة لا تمثّل السّلطة وترمز إليها فقط بل تظهرها أيْضا، ذلك أنّ أيّ سلطة لا يمكنها أن تتمثّل شاخصة ما لم تقلْها اللّغة، وتعلن للوجود وجودها، ومنذ القديم كانت للكلمة سلطة ونفوذ لشدّة تأثيرها في النّفس، حتّى أنّهم دعوْها كلمة من الكلم وهو الجرح، وسمّيت لذلك لأنّها تحدث أثراً عميقًا في النّفس، كما يحْدثه الجرح. وإنّ ما ميّز السوفسطائيّة عن غيْرها من الحركات الفلسفيّة هو «قولها بسلطة الكلمة والخطاب، هذه السّلطة التي تمّ الاعتراف بها قبل القرن الخامس قبْل الميلاد... إلّا أنّ السُوفسطائيَّة اختصَّت بمحاولتها إقامة نظريّة كامة حوْل سلطة الكلمة.»[40] وفي وقْتنا الرّاهن يتسلّط صاحب الكلمة، وهي علاقة طرديّة ذلك أنّ الذي يمتلك السّلطة تكون كلمته هي السّائدة.

إنَّ الوجود يتأسّس على مفهوم السّلطة، ومفهوم السّلطة يتأسّس على اللّغة، فقوّة اللغّة وسلْطتها تكمن في «كونها الرّابطة الوحيدة للتّعبير عن الفكر والوجود.»[41]

8- اللّغة والقرآن:

إذا كانت اللّغة موْضوع الحديث، قلنا هي نظام من العلامات، أداة تواصل، نشاط إنساني، مظهر حضاري، و إذا كان القرآن هو الذي نتحدّث عنْه قلنا نصّ لغوي ليْس مثله نصّ، صيغ صياغة لم يرْق إليْها نصّ لغوي آخر على الإطلاق، تحدّى أرباب الفصاحة وأسياد اللّغة، فأذعنوا وسلّمُوا بتفوّقه وسموّه.

نحن أمام خطاب جاءت كلماته متلاحقة إثر بعضها البعْض، تمسك هذه بيد الأخرى، محْكمة إحْكاما قويّا دوالّه ومدلولاته متوافقة لفظيًا ومعنويّا، ممّا جعل من هذا الخطاب أرقى مستويات التّعبير اللّغوي على الإطلاق يقول "**الباقلّاني**": «فأمّا دلالة القرآن فهي عن معجزة عامّة، عمّت الثّقليْن وبقيت بقاء العصريْن ولزم الحجّة بها في أوّل وقت ورودها إلى يوم القيامة على حدّ واحد، وإن كان قد يعْلم بعجز أهل العصر عن الإتيان بمثله وجْه دلالته، فيعني ذلك عن نظر مجدّد في عجز أهل هذا العصر عن الإتيان بمثله ...»[42]

لقد كان القرآن الكريم معجزة الزّمان، معجزة كلّ الوجود، أوحي به إلى خاتم الأنبياء، نبيّ البشريّة جمعاء، فبلّغه قرآنا يتْلى بلغة تتحدّى من أمسك بزمام اللّغة، فأبهر كلّ من سمعه وأعجز كلّ من حاول أن يأتي بمثله، أنْزل على محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- بلغة الذين بعث فيهم، وإن كان قد أرْسل للنّاس كافّة مؤلّفا بحروف لغتهم، وبكلمات معجمهم، إلاّ أنّهم وقفوا أمامه عاجزين، منبهرين بروعة سبكه وحبْكه.

إنّ القرآن الذي أنْزل للنّاس كافّة، وجعل كتاب البشريّة جمعاء أعْجز الخلق – بادي ذي بدء – باللّغة.

هنا نقف لنتساءل:

- ✓ لماذا لم تتنزّل التّوارة بهذا الإعجاز اللّغوي لقوم موسى أو فرعوْن؟
- ✓ لماذا لم يأْت الإنجيل بهذا الإعجاز اللّغوي؟
- ✓ لماذا القرآن وحْده دون غيره من الكتب السّماويّة اختير من لدن الله – عز وجل – ليتحدّى باللّغة؟
- ✓ هل في تحدّيه باللّغة، وإنزاله لكلّ الوجود دون قوم بعيْنهم حكمة ما؟
- ✓ لماذا كانت آخر المعجزات السّماويّة لغة؟

لقد بيّن "**ابن قتيْبة**" في كتاب تأويل مشكل القرآن أنّ معجْزة كل نبيّ تناسب العصْر الذي عاش فيه، فلمّا كان "**موسى**" عليه السّلام قد أرْسل في زمن يحكمه منطق السحّر عند الفراعنة، كان من الضّروري أن يرْسل بمعجزة تناسب مستوى الفكر الإنساني في ذلك الوقت، فتكون قريبة من أفق

المتلقّي الذي يؤمن بالمحسوس أكثر من المجّرد، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يبْطل بها فرية من بعث إلِيْهم، وذلك بإعجازهم بما يألفون ويعرفون ويفعلون كذلك ، والأمر نفسه كان مع **"عيسى"** عليه السّلام الذي بعث إلِيْهم ليتمّم شريعة **"موسى"**، فأرْسِل هو الآخر بمعجزات محسوسة، فلمّا كان **"موسى"** عليه السّلام يحْمل ثعبانا في عصاه التي يهشّ بها على غنمه، ويشقّ بها البحر طريقا يبسا أمام العيان، كان **"عيسى"** عليْه السّلام يُحيي الموْتى ويشفى المرضى أمام العيان.[43]

أمّا النّبيّ **محمّد** -صلّى الله عليه وسلّم – لما بُعث إلى النّاس كافّة ، كان لا بُدّ أن تكون معجزاته خالدة يشهدها النّاس كافّة، فجاء بالقرآن المعجز بلغته وبلاغته، فتحدّى أهل الفصاحة في ذلك الزّمان وسائر الأزمان.

إنّ كون اللّغة معْجزة القرآن الخالد المنزّل للنّاس كافّة لبرهان على أنّها أسطوريّة في ذاتها ذات سلطة لقداستها فكما أنّ القرآن استوى على عرْش الملك، واختصّ به سيّد الأنبياء، استحقّت اللّغة المختارة لتكون معجزة آخر رسالة سماويّة أن تحكم الوجود، ألا ترى أنّ خلق الوجود انبثق من قاموس اللّغة، وقامت أركانه على قوائم الفعل الإنشائي "كن" الذي شكّلته اللّغة وجعلته أمرا قال **الله** تعالى: " إنّمَا أمْرهُ إذا أَرَادَ شيْئا أَنْ يَقُولَ لَهُ كنْ فيَكُون" [يس81]

الوجود كلّه لغة، شيّدته لغة، خاطبه **الله** -عزّ وجلّ- بلغة، فقام ممتثلا لأمر" كن"، متمثّلا فيه.

خاتمة:

إنّ تقسيم الدّرس اللّغوي من خلال النّظريتين اللّسانيتين السّابقتين- البنيويّة والتّوليديّة باختلاف مدارسهما- إلى مستوى التّركيب الذي يهتمّ بدارسة العلاقة بين العلامات اللغوية، بحيث لا يتجاوز حدود الجملة والدّلالة التي تهتمّ بدراسة العلاقة بين العلامات والأشياء، جعل منهما -البنيويّة والتّوليديّة- مقاربتان لا تستنفذان كلّ مشاكل اللّغة خاصّة الجانب التّواصلي، ومن هنا ظهرت التّداوليّة لتكون بمثابة جبر للنّقص الملاحظ على المقاربتين سّالفتي الذّكر ولتعيد الاعتبار للعالم الخارجي، عالم المراجع؛ ولتدرس علاقة العلامات بمستعمليها.

إنه ما إن ظهرت التّداولية حتّى أعادت الاعتبار للخارج لساني، وفعّلت دور اللّغة في التّواصل، وعقدت أواصر الالتقاء والتّلاحم مع حقول معرفيّة مختلفة، واهتمت بمقاربة اللّغة في تجلّيها ما جعلها - على الرّغم من أنّها دخلت الخريطة اللّسانية مؤخّرا- تغدو أظهر فروع اللسانيات الاجتماعية بل ارتقت إلى أن أصبحت أهمّ العلوم اللّسانيّة الاجتماعيّة؛ إذ لم تعد اللّسانيات في ظلّها ذلك العلم المنعزل في المختبر، بل انعتقت من أسواره لتشارك في تدفّق الحياة البشريّة ولتتّخذ الإنسان وهو يباشر

أدواره الاجتماعيّة موضوعا لها، باعتبار أنها تنظر إلى الوجود والإنسان كظاهرة لغويّة نشطة تفعل في الخارج، معتمدة في نظرتها هذه على البنية اللّغويّة.

الإحالات:

[1]- التّفكير اللّساني في الحضارة العربية :عبد السلام المسدّي ، دار العربية للكتاب (د.م)، ط2، 1986، ص 48.

[2]- فهم الفهم – مدخل إلى الهرمنيوطيقا – نظريّة التّأويل من أفلاطون إلى جادامر عادل مصطفى- رؤية للنّشر والتّوزيع، القاهرة ، مصر، ط1، 2007، ص259/258.

[3]- المرجع نفسه، ص 257.

[4]- نفسه، ص 259.

[5]- تاريخ علم الحديث: جرهارد هليش، تر وسعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، مصر،ط1، 2003، ص 92.

[6]- علم اللّغة العام: فردناند دوسوسير، تر: بوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد، (د-ط)/ 1985،ص 40.

[7]- اتجاهات البحث اللساني: ميلكا إفيتش، ترد: سعيد عبد العزيز مصبوح و وفاء كامل فايز، (د.م)،ط2، (د،س)،ص220.

[8]- المرجع نفسه، ص 100.

[9]- محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة شفيقة علوي أبحاث للترجمة والنّشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط1، 2004، ص 12.

[10]- أنطلوجيا اللّغة عند هيدجر: إبراهيم أحمد، الدار العربيّة للعلوم ناشرون، لبنان/ منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 2008،01،ص25.

[11]- فعل القول من الذّاتية في اللغة: أركيوني، إفريقيا الشّرق، الدّار البيضاء، المغرب، (د.ط)، 2006، ص11

[12]- فهم الفهم : عادل مصطفى، ص 259.

[13]- همسهسة اللغة: رولان بارت، تر: منذر عيّاشي، مرْكز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا،ط1، 1999، ص 11.

[14]- مبادئ في علم الأدلة: رولان بارت، تر وتق : محمد البكري، دار الحوار اللاذقيّة،سوريا، ط1987،2،ص27-28.

[15]- اللّغة والفلسفة – نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة-: الزواوي بغورة، دار الطّليعة، بيْروت، لبنان،ط1، 2005،ص 28.

[16]- التَّفْكير اللّساني في الحضارة العربيّة، عبد السّلام المسدّي، ص54.

[17]- المرجع نفسه، ص 50.

[18]- التواصل – نظريات وتطبيقات- محمد عابد الجابري، سلسلة فكر و نقد، رقم3، الشبكة العربيّة للأبحاث والنّشر بيْروت، لبنان،ط2010،1،ص 68.

[19]- في اللسانيات العامة-تاريخها- طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها: مصطفى غلفان، دار الكتاب الجديد المتحدةّ، بيْروت،لبنان،ط210،1،ص11.

[20]- المرجع نفسه ، ص11.

[21]- نفسه، ص14.

[22]- التفكير اللّساني في الحضارة العربيّة، ص54.

[23]- مفاهيم في علم اللّسان: التّواتي بن التّواتي- سلسلة دراسات وأبحاث لغوية- ط2، 2008، ص 03.

[24]- هسهسة اللّغة: رولان بارت، ص 11.

[25]- فلسفة اللّغة عند لودفيغ فتغنشتاين: جمال حمّود، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر/ الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت،لبنان،ط1، 2009، ص 277.

[26]- اللّغة والمعنى- مقاربات في فلسفة اللّغة-: ص 187.

[27]- العلاقة بين اللّغة والفكر- دراسة للعلاقة اللّزوميّة بيْن الفكر واللّغة أحمد عبد الرحمان حمّادي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندريّة،مصر، (د.ط)، 1985، ص29.

[28]- المرجع نفسه،ص 23.

[29]- اللّغة والمعنى- مقاربات في فلسفة اللّغة- ص 187.

[30]- المرجع نفسه، ص 187.

[31]- التّفكير اللّساني في الحضارة العربيّة، ص 22.

[32]- المرجع نفسه، ص 22.

[33]- اللّسانيّات وأسسها المعرفيّة: عبد السّلام المسدّي، الدّار التّونسيّة للنّشر، تونس/ المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، (د.ط)،1986،ص27

[34]- المرجع نفسه، ص27.

[35]- العلاقة بين اللّغة والفكر- دراسة للعلاقة اللّزُومِيّة بين الفكر واللّغة، أحمد عبد الرّحمان حمّاد، ص29.

[36]- السّيميّاء والتأويل: روبرت شولز، تر:سعيد الغانمي، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، لبنان، 1994، ص23.

[37]- المرجع نفسه، ص 23.

[38]- التّفكير اللّساني في الحضارة العربيّة: عبد السّلام المسدّي، ص 56.

[39]- اللّغة والفلسفة- نقد المنعطف اللّغوي في الفلسفة المعاصرة-: الزّواوي بغورة، ص 32.

[40]- المرجع نفسه، ص 13.

[41]- اللّغة والتّأويل- مقاربات في الهيرمينوطيقا العَرَبِيّة- عمارة ناصر، منشورات الاختلاف، الجزائر/ دار الفرابي،بيروت، لبنان، ط1، 2007،ص 45.

[42]- إعجاز القرآن: الباقلّاني، تح، السّيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، (د،ط)، 2009، ص10-11.

[43]- تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة:تح: السيّد أحمد صقر،(د.م)، (د.ط)، (د.س)، ص109.

قائمة المصادر والمراجع:

1- التّفكير اللّساني في الحضارة العربية :عبد السلام المسدّي ، دار العربية للكتاب (د.م)، ط2، 1986.

2- فهم الفهم – مدخل إلى الهرمنيوطيقا – نظريّة التّأويل من أفلاطون إلى جادامر عادل مصطفى- رؤية للنّشر والتّوزيع، القاهرة ، مصر، ط1، 2007.

3- تاريخ علم الحديث: جرهارد هليش، تر وسعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، مصر،ط1، 2003.

4- علم اللّغة العام: فردناند دوسوسير، تر: بوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد، (د-ط)/ 1985.

5- اتجاهات البحث اللساني: ميلكا إفيتش، ترد: سعيد عبد العزيز مصبوح و وفاء كامل فايز، (د.م)، (د،س)، ط2

6- محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة شفيقة علوي أبحاث للترجمة والنّشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط1، 2004.

7- أنطلوجيا اللّغة عند هيدجر: إبراهيم أحمد، الدار العربيّة للعلوم ناشرون، لبنان/ منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 01 ،2008.

8- فعل القول من الذّاتية في اللغة: أركيوني، إفريقيا الشّرق، الدّار البيضاء، المغرب، (د.ط)، 2006.

9- هسهسة اللغة: رولان بارت، تر: منذر عيّاشي، مرْكز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا،ط1، 1999.

10- مبادئ في علم الأدلة: رولان بارت، تر وتق : محمد البكري، دار الحوار اللاذقيّة،سوريا، ط1987،2،ص27-28.

11- اللّغة والفلسفة – نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة-: الزواوي بغورة، دار الطّليعة، بيْروت، لبنان،ط1، 2005.

12- التواصل – نظريات وتطبيقات- محمد عابد الجابري، سلسلة فكر و نقد، رقم3، الشبكة العربّية للأبحاث والنّشر بيْروت، لبنان،ط 1، 2010.

13- في اللسانيات العامة-تاريخها- طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها: مصطفى غلفان، دار الكتاب الجديد المتحدةّ، بيْروت،لبنان،ط 2010،1.

14- مفاهيم في علم اللّسان: التّواتي بن التّواتي- سلسلة دراسات وأبحاث لغوية- ط2، 2008.

15- فلسفة اللّغة عند لودفيغ فتغنشتاين: جمال حمّود، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر/ الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان،ط1، 2009.

16- العلاقة بين اللّغة والفكر- دراسة للعلاقة اللّزوميّة بيْن الفكر واللّغة أحمد عبد الرحمان حمّادي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندريّة،مصر، (د.ط)، 1985.

17- اللّسانيّات وأسسها المعرفيّة: عبد السّلام المسدّي، الدّار التّونسيّة للنّشر، تونس/ المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، (د.ط)،1986.

18- السّيميّاء والتأويل: روبرت شولز، تر:سعيد الغانمي، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، لبنان، 1994، ص23.

19- اللّغة والتّأويل- مقاربات في الهيرمينوطيقا العَرَبِيّة- عمارة ناصر، منشورات الاختلاف، الجزائر/ دار الفرابي، بيروت، لبنان، ط1، 2007.

20- إعجاز القرآن: الباقلّاني، تح، السّيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، (د،ط)، 2009.

21- تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة:تح: السيّد أحمد صقر،(د.م)، (د.ط)، (د.س)، ص109